مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٢) العدد (٢)
الإصدار الخامس
٢٠٢١ (١٥٢-١٣٩)

AHJ Arab Humanities Journal
Middle East Institution of scientific Publishing

بين الرواية العربية والرواية الغربية (دراسة تقابلية)

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

رنا عبد الحميد الضمور
معلمة بوزارة التربية والتعليم، دكتوراه لغة عربية كلية الآداب،
*جامعة مؤتة، **الأردن***

الملخص

تتناول الدراسة الرواية العربية ونظيرتها الغربية من منظور تقابلي، حيث يعقد الباحث مقارنة بين الروايتين، من حيث ظروف النشأة والتطور، من المقامات العربية، وحديث عيسى بن هشام في العصر الحديث، وأسبقية الرواية الغربية في الظهور بالمفهوم المعاصر، ثم ترصد الدراسة أوجه التشابه والاختلاف بين الروايتين، من حيث التوجه العام، وتأثير الرواية الغربية في الفن الروائي العربي بوجه خاص، لا سيما المدرسة الأمريكية فيه، والتوجه الوجودي للرواية الغربية في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، ومدى تأثر الرواية العربية به.

الكلمات المفتاحية: الرواية العربية، الرواية الغربية، المعاصر.

Abstract

The study deals with the Arab novel and its Western counterpart from a contrasting perspective, whereby the researcher makes a comparison between the two narratives, in terms of conditions of origin and development, from Arab Maqamat, and the hadith of Isa bin Hisham in the modern era, and the precedence of the Western novel in appearing in the contemporary concept, and then the study observes the similarities and differences between The two novels, in terms of general orientation, and the influence of the Western novel on Arab fictional art in particular, especially the American school in it, and the existential orientation of the Western novel in the fifties and sixties of the last century, and the extent to which the Arab novel was affected by it.

*** مقدمة**

تناول عديد من الباحثين الرواية الغربية ونظيرتها العربية على النحو الذي تعددت فيه الدراسات، حيث تناولت الفن الروائي العربي ومدى تأثره بنظيره الغربي، حيث ظهرت الرواية العربية متأخرة نسبيًّا عن الرواية الغربية.

وإن المتأمل في مراحل تطور الرواية العربية ليدرك عراقة فنِّ القص لدى العرب، بما يؤكد على معرفتهم بفن القصة، وأدوات السرد التي يجب أن يمتلكها السارد، وأدبنا العربي مليء بما يدعم هذا الاتجاه القصصي، مع مراعاة أن القصة العربية لم تكن قد تبلورت بالشكل المعاصر الذي أسَّس له الروائيون الغربيون في العصر الحديث، ويكفي الباحث أن يطالع قصة (حي بن يقظان) لابن طفيل، وفن المقامات في عصوره المختلفة؛ ليدرك أن العرب كانوا على دراية كاملة بالقصة، فكانوا يؤلفون الأحداث، وينوِّعون بين الشخصيات، مما يؤدي إلى الصراع بما يلزمه من حبكة فنية ملائمة للحدث القصصي، وإن حكايات (ألف ليلة وليلة)، وإن اختلف الباحثون في أصولها، لتؤكد على إدراك العرب لفن القصة، وأن الأمة العربية قصصية بطبعها.

وكان ذلك مما مثَّل حافزًا للباحث على الإدلاء بدلوه في رصد منابع الرواية العربية والغربية، والوقوف على منابتها الأولى، على النحو الذي أدى إلى احتكاك الروايتين، وتأثر اللاحق بالسابق، مما أوجد نقاطًا هامة من التشابه والاختلاف بين الروايتين.

*** أهمية الدراسة**

تكمن أهمية الدراسة في محاولتها رصد أوجه التشابه والاختلاف بين الروايتين: العربية والغربية، والسعي لاستجلاء ملامح النشأة والتطور لديهما، وهو كفيل بالإجابة على الأسئلة التي تثيرها فرضيات الدراسة التي تنطلق منها تساؤلات الباحث.

*** فرضية الدراسة**

تنطلق الدراسة من خلال محاولة الإجابة على عدة تساؤلات، تؤطر لها، وتسعى لتناولها بالبحث، وهي:-

١- ما مفهوم الرواية لغة واصطلاحًا؟ وما حدودها التي ترسمها تلك التعريفات؟

٢- ما أهم سمات فن الرواية التي تميزها عن غيرها، فتضعها موضعها بين الأجناس الأدبية الأخرى؟

٣- ما مراحل النشأة التي مرت بها الرواية العربية ونظيرتها الغربية؟

٤- ما مراحل التطور التي مرت بها الرواية العربية ونظيرتها الغربية؟

٥- ما أوجه التشابه والاختلاف بين الروايتين: العربية والغربية؟

*** منهج الباحث في الدراسة**

اقتضت طبيعة الدراسة أن يتبع الباحث عدة مناهج، من تجميع المصادر التي تتناول تلك القضية محل البحث، كمنهج استقرائي يناسب التمهيد للبحث، ثم المنهج الموضوعي الذي يتناول الموضوعات التي ينتظمها الموضوع محل الدراسة، ثم إيراد النتائج التي توصل إليها الباحث في نهاية الدراسة.

*** الدراسات السابقة**

لقد تناولت كثير من الدراسات جوانب تتعلق بالموضوع محل الدراسة، وإن لم تُحِط بكافة جوانبه، فأفاد

الباحث منها كثيرًا، كدراسات برزت فيها جهود أصحابها، ومن ذلك:-

١- (أصل نشوء الرواية العربية: بحث موازن لآراء الدارسين العرب)، مذكرة معَدَّة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر في الأدب العربي، للباحثتين: إيمان عباد- كريمة منصوري، كلية الآداب-جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي- الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.

تناول البحث ماهية الجنس الروائي العربي، ورصد بداياته، مقارنًا بينه وبين الأجناس الأدبية الأخرى، بالإضافة إلى دراسة الرأي القائل: إن بداية الرواية العربية قد ارتبط بالصحافة، وانبثق عنه، ومقارنة بالرأي القائل: إن الرواية نتاج اجتماعي.

٢- (أثر الرواية الغربية في الرواية العربية: دراسة مقارنة)، بحث منشور في مجلة حوليات التراث، للباحث/الطيب بوشيبة، 2019م، ع19، 2019م.

تناول فيه الباحث أثر الرواية الغربية على نظيرتها العربية، من منظورات: تحديد ماهية الجنس الروائي-التأثير والتأثر بين الاتجاهين-مقارنة بين الروايتين، مع اختتام البحث بالنقاط المشتركة والمختلفة بين الاتجاهين.

٣- (وظيفة البداية في الرواية العربية)، دراسة للباحث/ شعيب حليفي، تناول خلالها الباحث رصد مراحل تطور الرواية العربية، بالإضافة لتطور تقنياتها، وتناول جماليات الرواية من المكان والزمان، ولغة السرد، كتقنيات متطورة لدى الروائيين العرب.

واختتم الباحث الدراسة بأهم النتائج التي توصل إليها، مع التوصيات التي ارتآها بناء على الدراسة المنشورة، وإيراد ثبت بمراجعها التي اعتمدت عليها.

*** التمهيد**

مما يجدر بنا قبل الولوج إلى الموضوع محل الدراسة التعرف على المفاهيم الإجرائية المتعلقة بها، وذلك على النحو الآتي:-

المطلب الأول- التأطير المعرفي لفن الرواية

*** الرواية لغة**

يعود أصل اللفظ إلى الجذر اللغوي (روي)، و"الأصل رويت من الماء رِيًّا. وقال الأصمعي: رويت على أهلي أروي ريًّا. وهو راوٍ من قوم رواة، وهم الذين يأتونهم بالماء، فالأصل هذا، ثم شُبِّه به الذي يأتي القوم بعلم أو خبر فيرويه، كأنه أتاهم بريهم من ذلك" (**ابن فارس،1979م،2/453**)، يُقال: "رويت الحَديث وَالشعر أرويه رِوَايَة. وَرجل راو للشعر" (**ابن دريد،1996م،1/235**)، أما "الرَّجل الرّاوية فالذي قد تمَّت روايته، واستحق هذا النّعت استحقاقَ الاسم، وفي هذا المعنى يُدخِلون الهاء في نعت المذكَّر، فإذا أردت وجه الفعل من غير مبالغة قلت: هو راوي هذا الشَّيء" (**الفراهيدي، د.ت، 8/311**).

وبناء على التعريفات اللغوية، فإن الرواية هي نقل الخبر على النحو الذي يزيل جهل، فيكون المروي له كمن رُوِيَ بعد عطش.

*** الرواية اصطلاحًا**

إن تعريف الرواية تعريفًا ثابتًا من الصعوبة بمكان؛ نظرًا لتطور مفهومها، وهو ما تعددت فيه التعريفات، فهي: "رواية كلية شاملة موضوعية أو ذاتية، تستعير معمارها من بنية المجتمع، وتفسح مكانًا لتتعايش فيه الأنواع والأساليب، كما يتضمن المجتمع الجماعات والطبقات المتعارضة" (مفقودة، د.ت، ص6).

فالرواية تتناول قطاعًا طوليًّا قد يتناول موضوعًا عامًّا معينًا أو ذاتيًّا يختص بالمؤلف، كسيرته مثلًا، وفي جميع الحالات، فإن الرواية تتناول قطاعات المجتمع وشرائحه، وتتفاعل مع قضاياه المُلحَّة، من منظور كل شريحة، بما يصور صراعها تجاه الموضوع المطروح.

ويعرف إي. إم. فورستر الرواية بأنها "كتلة هائلة عديمة الشكل إلى حد بعيد، إنها بكل بوضوح تلك المنطقة الأكثر رطوبة ونداوة في الأدب؛ حيث ترويها آلاف الجداول، وتنحطَّ أحيانًا لتصبح مستنقعًا آسنًا" (آلن، 1997م، ص18).

ويتعلق التعريف السابق بتوصيف الرواية فنيًّا، إذ إنها تتعامل مع أحداث متغيرة، وعصور متفاوتة، ومن ثم، فهي كتلة من المعالجات التي تناقش المتقلب من الأحداث المتغيرة، مما يجعل حدَّها بحد، سواء من ناحية الشكل أو المضمون، أو التقنيات المستخدمة، متعذِّرًا للغاية، على النحو الذي أوردناه آنفًا.

المطلب الثاني– التأطير الأجناسي لفن الرواية

ويُقصد به استبيان ماهية الجنس الروائي من الناحية النمط الفني المُتَّبع في فن الرواية، بمعنى استلهام الأنماط الفنية التي تسير عليها الرواية، بالإضافة إلى السمات التي تميِّز قولبتها الفنية عن سائر الأجناس الأدبية الأخرى، ويتجلى هذا التأطير في عدة نقاط هامة:–

١– الأحداث والشخصيات: حيث تتناول الرواية عدة أحداث، بالإضافة إلى تعدد شخوصها بقدر يتجاوز نظيره في القصة، التي تقتصر على حدث واحد يناسب الشخصية الواحدة.

و"كان جروج لوكاتش يرى أن الشكل هو الشخصية في اعتباراتها وأبعادها الفنية؛ فهي التي تكشف النقاب للقارئ عن مغزى الحياة الاجتماعية لمجتمع من المجتمعات" (مرتاض،1998م، ص36).

وقد تبدى ذلك في رواية (زينب)، لمحمد حسين هيكل، 1994م، فاستطاع أن ينوِّع في شخصياتها بما يخدم القضية المطروحة، وإن عيب عليه "عدم الدقة في رسم الشخصيات، وعدم إنطاقها بما يلائم مستواها، وإنما بما يلائم المؤلف نفسه، ثم عدم التسويغ المقنع لبعض الأحداث والتصرفات، إلى غير ذلك من المآخذ التي لا تجعل من "زينب" رواية فنية كاملة النضج، وإن كانت بداية طيبة، ومبكرة للرواية الفنية في الأدب المصري الحديث" (هيكل، 1994م، ص201)، وهو ما يبرز أهمية الأحداث والشخصيات في الرواية.

استجلاء الملامح النفسية البشرية: فالرواية، كفن أدبي، معنيَّة بتبيُّن ملامح النفس البشرية، ومن ثم، "تعكف جميع الروايات، في كل زمان، على لغز (الأنا)، إذ ما تبتكر كائنًا خياليًّا، شخصية قصصية؛ حتى تواجه آليًّا السؤال التالي: ما هي الأنا؟ وبم يمكن إدراك الأنا؟ إنه واحد من هذه الأسئلة

التي تقوم عليها الرواية بوصفها كذلك" (كونديرا، 1999م، ص29).

رصد مساحة زمنية كبيرة: وهي سمة تميز الرواية عن سائر الأجناس الأدبية الأخرى؛ إذ يصعب الوقوف على تفصيلات مساحة زمنية كبيرة إلا بواسطة الرواية، لا سيما التاريخي منها، وهو ما برز في الرواية العربية، بحيث لا يستولي المؤرخ على تواجد الأديب، فقد "استدعى الروائي العربي المؤرخ ، وطرده لأكثر من سبب، فالمؤرخ يقول قولًا سلطويًا (نافعًا)، ولا يتقصى (الصحيح)، يهمِّش المستضعفين، ويوغل في التهميش" (درَّاج، 2004م، ص5)، وهنا يكمن الدور المنوط بالروائي من القدرة على تقديم التفسيرات التاريخية، على النحو الذي يُخوِّل له ترتيبها، وإعادة صياغتها بما يُجلِّيها على النحو الصحيح.

القولبة الفنية للواقع: فالرواية لا تعكس الواقع بصورة مباشرة، بل تعمد إلى إعادة صياغته في قالب فني، وهو ما ذهب إليه بيير ماشري، من أن العمل الأدبي لا يتطابق مع الواقع، ومن ثم، فلا يعكسه بصورة مباشرة، ولا يكتفي كذلك بعملية استحضار بعض من عناصره" (داودي، د.ت، ص72)، فهو يمثل الرية الفنية لأحداث الواقع، التي تمتد من الرؤية لمحيط المؤلف حتى رؤية العالم كما يبدو له، ومن ثم، "تشكل الرؤية للعالم إحدى البنى المركزية للرواية، وإن كل تحليل بنوي هو بالضرورة تحليل دلالي غايته كشف العلاقة القائمة بين الشكل والمضمون" (مرتاض،1998م، ص36). وقد أوضحنا فيما سبق السمات التي تحدد معالم الرواية، وتؤطر حدودها الأجناسية، بما يميزها عن غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى.

المبحث الأول– رصد مراحل النشأة والتطور في فن الرواية الغربية والعربية

المطلب الأول– طور النشأة والتطور للرواية الغربية

تعود جذور الرواية الغربية إلى عصر النهضة الأوروبي، الذي بدأ من القرن الرابع عشر حتى الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر.

ففي ذلك العصر، وُضِعت البذور الأولى للنهضة الأدبية في كل مجالات الأدب، لا في الرواية وحدها، وقد تولَّدت بعض اتجاهات الرواية من الشعر، حيث كان "الشعر الرعوي المتعلق بالنماذج الكلاسيكية أكثر انتشارًا، وهو يعد النوع الأدبي المميز لهذا العصر على النطاق الأوروبي بصفة عامة، ، وقد انبثق عن هذا النوع فيما بعد ما يُسمَّى بـــــــــــ (الرواية الخيالية العاطفية الريفية) التي كانت مقدمة للرواية الحديثة التي امتد أثرها إلى الأدب المسرحي فيما بعد، وقلَّدها شكسبير مثلًا في مسرحية: كما تهواه، كما كان الأدب الإسباني يقفز خلال هذه الحقبة قفزة نوعية جديدة على يد ميخائيل دي سرفانتس سافيدار مؤلف (دون كيشوت) التي تعتبر نموذجًا للأدب الروائي في عصر النهضة" (المعوش، 1998م، ص21)، وهو ما يوضح الجذور التاريخية المصاحبة لظهور الرواية الأوروبية في عصر النهضة، وأنها قد تفرَّعت على فن الشعر.

يعد القرن الثامن عشر هو الفترة الزمنية التي بدأت فها الرواية الغربية تنضج في العصر الحديث، حيث ارتبط مصطلح الرواية بظهور وسيطرة الطبقة الوسطى في المجتمع الأوروبي في القرن الثامن عشر، وصوَّر الأدب هذه الأمور

المستحدثة بشكل حديث اصطلح الأدباء على تسميته بالرواية الفنية.

فالرواية إذن وليدة الطبقة البرجوازية، وهي البديل عن الملحمة، ولذلك اعتبر هيجل الرواية ملحمة العصر الحديث" (مفقودة، د.ت، ص8)، فتكون الرواية، بناء على ذلك، مُنجَزًا برجوازيًّا اتسم بالشعبوية اللافتة، فجاء مصوِّرًا لطبقات الشعب، وبخاصة الطبقة البرجوازية البديلة للطبقة الحاكمة، بعد "صعود البرجوازية ذلك الصعود الصاعق في أعقاب الثورة الصناعية" (عبود، 2002م، ص20).

فالرواية الغربية التي ظهرت في العصور الوسطى كقصص شعرية ثم قصص نثرية، انتقلت إلى التأثر بالقصة، قد أصابها التطور في عصر الثورة الصناعية، "فظهرت أول أمرها في ترجمات شتى في الأدب الأوروبي، وظلت الترجمة مصدرها الأكبر حتى بعد الحرب العالمية الأولى، وازدادت حركة التأليف بعد الحرب العالمية الثانية" (بوشيبة، 2019م، ص58).

م تتوقف نتائج الحرب العالمية الأولى على السياسة فحسب، بل طالت الأدب كذلك، بما فيه الرواية نفسها، كفن يستلهم وجوده من واقع الحياة، ومن ثم، فإنه "من غير الممكن التحدث عن تطور الرواية في العالم دون المعاج على المدرسة الأمريكية للنظر في أثرها في هذا التطور، ومن أهم الأنواع الروائية التي أنشأت هذه المدرسة (السلسلة السوداء) و(رواية التجسس)، ولقد ازدهرت تلك المدرسة الروائية في الأعوام التي عقبت الحرب العالمية الأولى ازدهارًا عظيم النَّفاق، ولعل أهم ما يميز هذه المدرسة الأسلوب الجديد في السرد، الذي لم يكن معهودًا من قبل في الرواية الأوروبية، وواضح أن الروائيين الأمريكيين الشباب كانوا متأثرين حسب رأي الناقدة جولييت رابي، باستكشاف أوروبا، ونتائج الحرب العالمية الأولى، وقد نفخوا في جنس الرواية نفسًا جديدًا" (مرتاض،1998م، ص38).

أما عن الرواية بمفهومها الحديث، فقد كانت بداياتها الأولى محل خلاف، مما يصعب معه تحديد منابعها الأولى، وبما أن الرواية مشروع غير مكتمل الإنجاز كما أورد باختين من قبل، فإن تلمُّس حدود الرواية وفضاءاتها الزمانية والمكانية من الصعوبة بمكان، فضلًا عن الوقوف على منابتها الأولى، ويُستَنتَج من ذلك أن الفن الروائي تشكَّل في مستويات عدَّة: سياسية، ديمقراطية، عقلانية، فكرية واقتصادية، كما تشكَّل في شروط اجتماعية أنتجت علاقات مادية جديدة... فانتقل البطل الأسطوري إلى الزمن التاريخي، من مستوى البطل إلى مستوى الإنسان الاجتماعي الذي يتحرك في داخل العلاقات الاجتماعية" (المعوش، 1998م،، ص31)، وهي نقلة نوعية لجوهر تطور الرواية الغربية، وما تأثر بها من غيرها، من تمثُّلها لحياة الإنسان العادي، بما يمثل نزولًا من أبراج الأسطورة العاجية، والبطل الذي تسانده الآلهة إلى حياة الناس اليومية، بكل ما فيها من متناقضات.

وتمثل الرواية الحديثة، لا سيما لدى الروائيين الأوروبيين، النظرة الواقعية للحياة، بالدرجة التي تتنافى النظرة الرومانسية التي سادت في القرن التاسع عشر، و"لم تعد تُطاق في القرن العشرين، ويكاد الشعور نحو هذه الفكرة أن يكون عالميًّا، فالحرب العالمية الأولى بمآسيها، وملايين الجثث التي خلَّفتها، قد أصابت الناس بالرعب من التقدير المبالغ فيه للذات، كما كان قادة الثورة الروسية قساة في كراهيتهم

للبرجوازية الفردية... كما كان هناك عدوان آخر على الذات المنعزلة، نشأ في ألمانيا عام 1936م، وأن تحويل ملايين البشر إلى أكوام من العظام أثار تساؤلات حول معنى الحياة" (برادبري، 1996م، ص49)، ولاشك أنه قد أسهم في صعود الخط الروائي الذي يُعنى بالواقع، ويقضي على البطل الأوحد فيدمِّره، ويعوِّضه بالشخصية، وأمسى يعول على اللغة واللعب بها، والتصرف في نسجها، وإقامة كل جماليات الكتابة على آلياتها" (مرتاض،1998م، ص26).

المطلب الثاني– طور النشأة والتطور للرواية العربية

وقد سارت الرواية العربية في نفس المسار، فبدأت مسيرتها الفنية الناضجة في القرن العشرين، إلا أنها لم تأتِ مصحوبة بالثورات السياسية والمجتمعية على الطبقات الحاكمة، بما يعني أنها "وُلِدت في شرط غير روائي، لم تنجز فيه البرجوازية العربية ثورتها، ولم يعرف الواقع العربي فيه ثورات جذرية... وهي بذلك بعيدة كل البُعد عن الشرط الأوروبي الذي سوَّى روايته، وأرسل بها إلى ثقافات مغايرة" (دراج، 2004م، ص5). كما يرى فيصل دراج.

ولا يمكن بحال اختزال الظروف التي ألَّمت بالرواية العربية فيما سبق، وإن اعترفنا بتأخر ظهور الرواية العربية الناضجة بمفهومها الحديث عن نظيرتها الأوروبية، فلا مجال لإنكار تأثر الرواية العربية الحديثة، في طورها الأول بالصحافة، فكان لجريدة (الأهرام)، التي أُنشِئت عام 1785م دورها في نشر الرواية، وقد "دأبت على نشر الروايات على شكل حلقات مسلسلة، وأخذت تجتذب الكثير من القرَّاء، وكان من أول هذا النوع من القصص: ذات الخدر، التي كتبها سعيد البستاني 1884م، وهي تحوي تعقيدات في الحبكة، ومصادفات مفرطة، مما اشتملت عليه كتابات فرنسيس مراش وسليم البستاني" (آلن، 1997م، ص45).

وبصفة عامة، يمكن حصر اتجاهات تطور الرواية العربية في المراحل التالية: –

١– الرواية التاريخية: لا أحد ينكر دور التاريخ في نشأة الرواية، كما يرى هيجل؛ كونه "يسير في خط تصاعدي ضمن عملية جدلية شاقة، فالتاريخ هو مسيرة العقل المطلق من أجل وعي ذاته... وبما أن التاريخ إنساني، فإن كل منتجات الإنسان تخضع للعقل والصيرورة" (عبود، 2002م،ص10).

وكان من الطبيعي أن يتلاقى المحدثون مع تاريخهم، فتكون ثمة نقطة التقاء تتوسط بين القديم والجديد، وهو ما تجلى لدى الأخوين: مارون النقاش وسليم النقاش، وأبي خليل القباني، في استلهام التاريخ من خلال روايات ممثلة على المسرح، و"كان لليجندة عنترة ومجنون ليلى حصة الأسد وحضور مميز" (عبود، 2002م،ص65).

وقد خطا فن القصّ، في تلك الفترة، خطوات واضحة، واتجه اتجاهات مختلفة، ولكنه تدرَّج آخر الأمر بين طرفين متقابلين، أولهما: محافظ يستلهم التراث، ويتأثر ببعض قوالبه، وآخرهما تجديدي يحاكي قصص الغرب، وينسج على منواله. وبين هذين الطرفين وُجِدَت ألوان أخرى، تختلف قربًا وبعدًا من هذين الطرفين، باختلاف طبيعة أصحابها وثقافتهم وأهدافهم، وفيما يلي رصد لأهم تلك الاتجاهات جميعًا.

٢– الرواية الاجتماعية المقامية

فقد تنوعت "الأعمال القصصية التي تسير في الاتجاه المحافظ، وتستلهم التراث وما فيه من ألوان قصصية، مثل:

ألف ليلة، والمقامات، وتنوعت كذلك مادة هذه الأعمال روحها وأهدافها؛ فكانت أحيانًا خيالية المادة شاعرية الروح، تهدف إلى التسلية، مثل: ورقة الآس، لأحمد شوقي، التي تأثر في مادتها بـــــــــــ (ألف ليلة وليلة)، وفي أسلوبها بـــــــــــ (المقامات).

على أن أهم هذه الأعمال القصصية المحافظة التي كانت تستلهم التراث، هو اللون الاجتماعي الغاية، المقامي الأسلوب، الروائي البناء، الذي يمثله "حديث عيسى بن هشام" لمحمد المويلحي، والذي يمكن أن يسمى "الرواية الاجتماعية المقامية"، باعتبار غايته وطابع أسلوبه.

"فحديث عيسى بن هشام" يمكن اعتباره رواية أخذت طريقًا تهذيبيًا، يهدف إلى تبصير المواطنين بطائفة من عيوبهم ليعدلوا من سلوكهم، وعلى هذا يكون هذا العمل رواية تهذيبية ذات طابع اجتماعي" (هيكل، 1994م، ص183).

٣- القصة التهذيبية البيانية

وتمثلت في روايات مصطفى لطفي المنفلوطي المترجمة، فقد "عكف على المترجمات يقرأ فيها ويوسِّع آماد فكره بكل ما يستطيع من قوة. وكان فيه طموح، فرأى أن يترجم بعض القصص والمسرحيات الغربية، ولكن أنَّى له وهو لا يحسن الفرنسية ولا غيرها من اللغات الأوربية، إلا أن ذلك لم يقف دونه، فقد طلب إلى بعض أصدقائه أن يترجموا له بعض آثار القوم الأدبية، ينقلوها هم أولًا، ثم ينقلها هو إلى أسلوبه الرصين" (ضيف، د.ت، ص229).

٤- الرواية التعليمية التاريخية

وقد ازدهرت في "أوائل القرن العشرين، حيث كان جورجي زيدان ينشر قصصه التاريخية التي بلغت نحو عشرين قصة، وقد استمد حوادثها من التاريخ الإسلامي، وهي في جملتها لا تستوفي شروط القصة من الحبكة والتسلسل الروائي؛ ولكنها على كل حال تعد عملًا جديدًا" (ضيف، د.ت، ص188).

و"هكذا قدم سلسلة من الروايات التاريخية التي تضم في ثنايا البناء القصصي أطراف التاريخ الإسلامي في المشرق والمغرب" (هيكل، 1994م، ص194).

٥- ميلاد الرواية الفنية

وهي المرحلة التي بدأت فيها الرواية العربية تشق طريقها كنمط فني يشابه الرواية العربية في الشكل، وإن احتفظ بمضمونه، ويمكن اعتبار رواية (زينب-1912م) لهيكل تمثل "نقلة نوعية هامة في مسار الرواية العربية؛ لتوفر العناصر الفنية؛ ولأن صدورها توافق مع حالة نهوض فكري تمثل بمجموعة بارزة من المثقفين تهتم بالرواية والقصة: كتابة وترجمة" (باحثون، 1971م، ص107).

فتكون الرواية العربية قد مرَّت بأطوار تاريخية تعليمية، كمراحل حاولت فيها تلمُّس الطريق نحو النضج الفني الذي بدت ملامحه في رواية (زينب).

المبحث الثاني– أوجه التشابه والاختلاف بين الرواية العربية والغربية

المطلب الأول– أوجه التشابه

إن المتأمل لتاريخ الرواية العربية والغربية ليلاحظ عدة محاور مشتركة بين الروايتين، سواء في النشأة أو المحطات التي قابلت الاتجاهين، ومنها:

١– الانطلاق من ثقافة المجتمع وقضاياه: لئن ارتبطت الرواية، في نشأتها، بالتعبير عن الثقافة البرجوازية في الأدب الغربي، إلا أنها قد انطلقت، في مراحلها التالية، من الواقع المجتمعي، مما حدا بميخائيل باختين لأن يتخلى عن "الربط بين الرواية والطبقة البرجوازية، وانطلق من خلفية لسانية سيميائية، وتبنى معطيات التحليل التاريخي للمجتمع، واعتبر الرواية مجالًا لتوليد المعاني الجديدة" (بوشيبة، 2019م، ص57–58).

وهو ذاته ما نجده في الرواية العربية، التي استوعبت "الموضوعات والاتجاهات الأساسية في العالم، فخاطبت التاريخ، وتحدثت عن الحب، وحاولت الولوج إلى الباطن، واستندت في كثير من قوالبها ومضامينها على الرومنطيقية والرومانسية... وكانت واقعية بالقدر الذي تمثلها رواد هذا الاتجاه وفهم الواقعية" (المعوش، 1998م، ص265).

ويرى (سمر روحي الفيصل) أن الرواية الخليجية "حرصت كغيرها من الروايات العربية على الوظيفة الاجتماعية، سواء أكان ظهورها متقدمًا في الزمن أم متأخرًا، وسواء أكان تعبيرها خاصًا بمجتمع كاتبها أم كان عامًا يصور مجتمعات عربية أخرى عاش الروائي الخليجي فيها، أو عرفها عن قرب، ثم عبَّر عنها روائيًا، فرواية (ثمن التضحية) التي صدرت عام 1959م، عدت أول رواية فنية في السعودية، عبَّرت عن المجتمع المكي، وعن حياة جيلين من التجار فيه، في أثناء الحرب العالمية الأولى وما بعدها" (الفيصل، 2010م، ص99–100).

فالرواية الخليجية، بناء على الفقرة السابقة، قد مثلت مرآة مجتمعية راصدة للتحولات الاجتماعية بصورة أشد عمقًا، كما تدل على التلاحق الزمني بين الروايات الخليجية، والتي اشتركت جميعها في تبئير المناحي الاجتماعية في المجتمعات الخليجية، معتمدة على مفردات البيئة الجديدة التي تتداخل مع شخصيات العمل الروائي في زمن ومكان محددين، وهو ما يذهب إليه (محمد نجم)، إذ يرى أن "الكاتب يستعين في رسم بيئة قصته بنفس الوسائل التي يستعين بها في سرد الحوادث أو رسم الشخصيات، وهو يلتقطها، كما يلتقط هذه، بالملاحظة والمشاهدة، أو من قراءاته الخاصة، أو ينسجها بخياله نسجًا، مسلطًا عليها قوة الإبداع والاختراع، معتمداً على ما يلتقطه أثناء تجاربه في الحياة" (نجم، 1955م، ص103–104). وهو ما يؤكد على قدرة الرواية الخليجية في تلك المرحلة على تلمس بدايات مواضع طريقها الجديدة التي طرقتها.

٢– سذاجة التجارب الأولى: حيث لم يكن مفهوم الرواية قد تبلور بعد، فجاءت الحبكة ساذجة إلى حد ما، وهو ما تجلى في الروايتين: العربية والغربية على حد سواء، وإن اتسمت الروايات العربية بشيء من النضج الفني عن نظيراتها الغربية، حيث كان "الجمع بين التاريخ والإثارة الرومانتيكية الملفقة، إلى جانب التأكيد على الحدث، مما يمكننا القول معه: إن هذه الروايات كانت أفضل بكثير من بعض الأعمال

المترجمة أو المقتَبسة أو المكتوبة التي كانت تُنشَر على شكل حلقات، وتحوي شيئًا من كل شيء (شأن بعض الأفلام الهندية الأخيرة)، مثل: القتل والمؤامرات والحب والقتال والأحداث السريعة" (آلن، 1997م، ص51)، فكانت الروايات التي كُتِبت حتى بداية القرن العشرين موزعة بين أسلوب المقامات ولغتها الزخرفية، واحتمائها على كم هائل من المعلومات غير المتجانسة، وبين الوقوع تحت تأثير الروايات الغربية الرديئة، والتي كانت حسب اختيار صغار المترجمين، مليئة بالغرائب والأوهام، وغارقة في العاطفة والخيال" (باحثون، 1971م، ص104)، على النحو الذي يسم الروايتين بسذاجة التجربة الأولى، وعدم اتضاح ملامح النضج الفني الروائي بعد.

٣- استلهام النموذج التاريخي في المراحل الأولى: فقد اتجه الروائيون الغربيون إلى الاتجاه التاريخي يستلهمون نماذجه في الأعمال الروائية، وقد كان والتر سكوط (1871-1832م)، الذي عرف شهرة طائرة؛ بفضل أعماله الروائية ذات النكهة التاريخية، هو منشئ هذا النوع من الرواية.

وبتركيب والتر سكوط للوحات فريدة مع مجازات سردية غير مسهبة، استطاع أن يعري، فوق الخشبة الأدبية، أرداحًا بالغة من تاريخ الشعب الإيكوسي... وكان من العسير على الرواية أثناء القرن التاسع عشر الجنوح عن هذا المسار الذي كان والتر سكوط رسمه" (مرتاض،1998م، ص31).

نجد هذا الاتجاه أيضًا لدى الرواية العربية، فيما اتسمت به روايات جورجي زيدان (1861-1914م)، فاختار "عددًا من أحداث التاريخ الإسلامي كحبكات لرواياته، فقصة (أرمانوسة-1869م) تعالج موضوع الفتح العربي لمصر، بينما تعالج رواية (الحجاج بن يوسف الثقفي-1902م) حياة حاكم العراق الشهير خلال فترة الخلافة الأموية، أما رواية (شجرة الدر-1914م) فتتناول حياة تلك الملكة المشهورة التي حكمت مصر" (آلن، 1997م، ص51).

كما كان للرواية، في منطقة الخليج العربي، نصيب من ذلك الاتجاه، وإن بدت متأخرة زمنيًّا، فقد "أسهمت فيها التحولات المحيطة، سواء كانت محلية أو إقليمية، وهو ما انعكس على الرواية الخليجية، فتعددت المحاور التي تنطلق منها، فضلًا عن النقلة النوعية في تقنيات السرد، وثراء الطرح، فتجلى الاتجاه التاريخي في الرواية السعودية، والذي بدأ يظهر عام 1965م، في رواية (أمير الحب)، لمحمد زارع عقيل" (الحكمي، د.ت، 29).

٤- التأثر بجميع التيارات الفكرية التي ظهرت على الساحة العالمية

حيث تأثرت الروايتان العربية والغربية بالمناهج النقدية، والتيارات التي ظهرت على الساحة العالمية، كالاجتماعية التي تتبنى الفكر الماركس، والوجودية التي تتبنى الاتجاه الواقعي، بالإضافة إلى التأثر بالكتَّاب والمفكرين أصحاب النظريات التي حملتها مؤلفاتهم، مثل: "ماركس، فرويد، بروست، جويس، كافكا، بريخت، جيد، هيمينغواي، دون باصوص، كامي، جيد، سارتر، وسواهم من كبار المفكرين والأدباء الذين هزُّوا الأدب العالمي هزًّا عنيفًا في القرن العشرين خصوصًا؛ وذلك بتطلُّعهم إلى عالم حالم أمثل لوظيفة الأدب الروائي، ودوره في الحياة: اجتماعيًّا، حضاريًّا وجماليًّا" (مرتاض،1998م، ص72).

المطلب الثاني– أوجه الاختلاف

اختلفت الرواية العربية عن نظيرتها الغربية في عدة نقاط هامة، تتعلق بالمضمون وطرق المعالجة، بالإضافة إلى تقنيات السرد، مثل:

١– ظروف النشأة: حيث اختلفت ظروف النشأة، فجاءت الرواية الغربية متحوِّلة عن الشعر، كما أوردنا آنفًا، متطورة عن الملحمة، وهي عملية تفاعلية أدت لموت أجناس قديمة، وصعود أخرى بدلًا منها، أما الرواية العربية، فرغم أنها قد وُجِدت بشكل معيَّن في تراثنا العربي، إلا أنها قد جاءت، في شكلها المعاصر، وليدة ترجمات، لا إبداعات، ثم ما لبثت أن تطورت، واتخذت شكلها المعاصر (بوشيبة، 2019م، 62).

٢– مفهوم الآخر: حيث حملت نظرة كل فريق للآخر نظرة ارتياب، لا سيما لدى الروائيين العرب، وتجلى ذلك منذ بواكير الرواية العربية، فقد ألَّف علي مبارك رواية (علم الدين)، وهي رواية ذات طابع تعليمي، هدف من خلالها إلى "تقديم معارف مُنَوَّعة أولًا، ثم المقارنة بين أحوال الشرق وأحوال الغرب ثانيًا، واختار لتلك المعارف والمقارنة قلب الحكاية، واتخذ صورة الرحلة من مصر إلى أوروبا شكلًا لهذه الحكاية، ثم آثر جعل بطلها شيخًا ريفيًّا مصريًّا أزهريًّا مستنيرًا يصاحب في تلك الرحلة عالمًا إنجليزيا، تعرف به في مصر وهيأ له –بعد أن أعجب به– أن يصحبه إلى أوروبا، ومما يدور بين البطل والعالم الإنجليزي، ومما يكون في الرحلة من مواقف عديدة، يقدم المؤلف مجموعة كبيرة من المعلومات، في العلوم الإنسانية والطبيعية وغيرها، كما يعقد مقارنات بين الشرق والغرب" (هيكل، 1994م، ص79)، وهو اتجاه تنامى في الرواية العربية بشكل ملحوظ، من محاولة استجلاء المجتمع الأوروبي، والوقوف على عاداته وتقاليده التي تخالف نظيرتها المشرقية.

٣– الرواية الحربية ضد المستعمر: وهو من أوجه الاختلاف البارزة بين الرواية العربية والغربية؛ إذ برز ذلك النوع من الرواية للظروف التي فرضتها "الأوضاع التاريخية التي كانت قد أفضت بضراوة وشراسة إلى وقوه معظم الأقطار العربية تحت القبضة الاستعمارية الشيطانية، ولما أفاقت هذه الشعوب من سِنَتِها، لا سيما تلك التي أصيبت بضراوة الاحتلال الأوروبي، فأعلنت الحرب على الاستعمار" (مرتاض،1998م، ص43).

٤– النزعة الوجودية في مقابل التقاليد المتوارثة: وهو اختلاف لافت بين الروايتين في التوجُّه الذي سيطر في فترة من الفترات، فقد "سيطرت المدرسة الوجودية التي تزعمها جان بول سارتر في فرنسا، وربما خارجها أيضًا زهاء خمسة عشر عامًا، وهي الرواية التي تمجد الإنسان، وتثق فيه، وتدافع عنه، بما هو قيمة على هذه الأرض" (مرتاض،1998م، 64).

ولا شك أن تلك النزعة الوجودية قد تزامنت مع الاتجاه الماركسي الذي طغى على الأدب، حيث مثَّلت النظرة الاجتماعية للأدب مدرسة هامة في ترسيم حدود الرواية في تلك الفترة؛ إذ "لم يعد العنصر الجمالي هو الموسوم بالإطلاق والمثالية، وإنما هو تنظيم وتنسيق وصياغة لعناصره المادية بحيث يخدم الهدف، وبدونه لا يمكن للهدف أن يحقق وظيفته المنشودة" (قطوس، د.ت، ص54).

ولا يمكن إنكار تأثر العالم العربي بالاتجاه الواقعي في الرواية، مما انعكس على النقد كذلك، إلا أن الرواية العربية

قد احتفظت بطابعها الخاص في أغلب مراحلها، بحيث مثّلت نزعة التمسك بالتقاليد السمة السائدة فيها.

٤- القضايا المُتَناوَلة: حيث يقف الحاجز الأخلاقي والديني أمام تناول قضايا بعينها في الرواية، كالمساس بالذات الإلهية، والإساءة للأديان والرسل، أو تناول موضوعات إباحية متحررة لا تراعي التقاليد العربية، أما الرواية الغربية، فتتناول كافة الموضوعات بلا حواجز، مما يعدُّ اختلافًا جوهريًّا بين الروايتين.

أدى اختلاف الترجمات من اللغات الأجنبية إلى العربية إلى اختلاف المدلولات للمصطلح الواحد، حيث تتشابه فيه ألفاظ بعينها، مثل: السرد-القصّ- الحكْي، وهو اختلاف مصطلحي شائع في الرواية (بوشيبة، 2019م، ص62).

*** خاتمة**

تناول الباحث الروايتين: العربية والغربية من منظور تقابلي، بحيث تناول ظروف النشأة، وعوامل التطور لدى كل منهما، مع رصد أهم أوجه الشبه والاختلاف بينهما، على النحو الي مكّنه من الوصول إلى نتائج وتوصيات معينة، اتجهت لها قناعاته.

أولاً- النتائج

١- يخضع مفهوم الرواية لتطور مستمر، من حيث تحديد الماهية، مما يجعل الاستقرار على تعريف ثابت لها من الصعوبة بمكان.

٢- تتسم الرواية بسمات خاصة، تفصلها عن الأجناس الأدبية الأخرى، كاتساع الحيز الزماني والمكاني، فضلًا عن فضاء الحدث وتنوع الشخصيات، على النحو الذي يميزها عن سائر الأجناس الأدبية الأخرى.

٣- اتسمت ظروف نشأة الرواية الغربية بكثير من التقلبات، وإعادة الصياغة، من التحول عن الفن الشعري الملحمي إلى الرواية الرومانسية، ثم التحول للاتجاه الواقعي.

٤- كان للحرب العالمية الأولى أثرها في الاتجاه تدريجيًّا إلى الواقعية التي بلغت قوتها بعد الحرب العالمية الثانية.

٥- عمد الاتجاه الواقعي للرواية الغربية إلى القضاء على السمات الملحمية والأسطورية للبطل، وما في ذلك من تمجيد للذات، واستبدالها بشخصية العمل الروائي الذي يتناول حياة الناس اليومية، وهو مرتكز مشترك بين الرواية الغربية ونظيرتها العربية.

٦- تأخرت الرواية العربية عن نظيرتها الغربية في الظهور، وقد عرف التراث العربي فن القصة، إلا أن الشكل الحديث للرواية غربي النشأة بحيث تأثرت به الرواية العربية.

٧- مرَّت الرواية العربية بمراحل متعددة، حيث استلهمت النموذج التاريخي في بداياتها؛ لتشابه القصة مع السرد التاريخي الذي يلتزم ترتيبًا معينًا، وهو ما اشتركت فيه الرواية العربية والغربية مع غلبة الأسطورة على التاريخ لدى الأخيرة.

٨- مثّلت الترجمات أولى مراحل النضج الفني للرواية العربية، وقد تزعّمها المنفلوطي، فجاءت ذات نزعة تهذيبية، وجاء الشعر التعليمي لجورجي زيدان بمثابة محاولات غير مكتملة النضج، إلى أن تمت ولادة الرواية الحديثة على يد محمد حسين هيكل، 1994م، في روايته (زينب).

٩- اشتركت الرواية العربية والغربية في التأثر بجميع التيارات الفكرية التي ظهرت على الساحة العالمية، كالماركسية

والوجودية، ويميل الباحث إلى أن تـــأثير تلك التيارات كان محدوداً بالنسبة للرواية التي لم تخرج على تقاليد المجتمع بقدر لافت كما حدث في الرواية الغربية.

ثانياً– التوصيات

١– التوسع في الدراسات التي تتناول الرواية العربية من كافة زواياها الفنية.

٢– الاهتمام بإصدار المطبوعات والدوريات التي تتناول رواد الفن الروائي العربي والغربي.

٣– تضافر الدراسات التاريخية مع نظيرتها الأدبية لدراسة مدى الارتباط بين الفن الروائي والمناهج والتيارات النقدية التي ظهرت على الساحة الأدبية.

٥– التوسع في التأريخ لمدارس الرواية العالمية ورصد ظاهرة التأثير والتأثر بينها وبين الرواية العربية على النحو الذي يبرز المشتركات بين الطرفين.

*** المراجع**

أبحاث في الرواية العربية، صالح مفقودة، د.ت، جامعة محمد خيضر، بسكرة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الأدب العربي، منشورات مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري.

أثر الرواية الغربية في الرواية العربية: دراسة مقارنة، الطيب بوشيبة، 2019م، جامعة أحمد بن بلة، وهران الجزائر، مجلة حوليات التراث، ع19، 2019م.

الأدب العربي المعاصر في مصر، أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف، د.ت، دار المعارف، ط13.

تطور الأدب الحديث في مصر، أحمد عبد المقصود هيكل، 1994م، دار المعارف، ط6، 1994م.

جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م.

دليل النظريات النقدية المعاصرة: مناهج وتيارات، بسام قطوس، كلية الآداب، جامعة الكويت، دط.

الرواية العربية: مقدمة تاريخية، روجر آلن، 1997م، ترجمة: حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1997م.

الرواية اليوم، مالكوم برادبري، ترجمة: أحمد عمر شاهين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1996م.

الرواية وتأويل التاريخ: نظرية الرواية والرواية العربية، فيصل دراج، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004م.

صورة الغرب في الرواية العربية، المعوش، 1998م، سالم، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

فن الرواية، ميلان كونديرا، 1999م، ترجمة: بدر الدين عرودكي، دار الأهالي للكباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999م.

فن القصة، محمد نجم، 1955م، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1955م.

في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد عبد الملك مرتاض،1998م، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت، 1898م.

قراءة عامة للمشهد الروائي الخليجي، عائشة يحيى عثمان الحكمي، من وقائع ندوة الرواية الخليجية الجديدة: وقائع ملتقى الشارقة التاسع للسرد.

كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: مهدي المخزومي- إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

مجلة دراسات الأدب المعاصر، باحثون: محمد هادي مرادي- أزاد مونسي-قادر قادري-رحيم خاكبور، ع16، 1391ه.

معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

من تاريخ الرواية، حنا عبود، 2002م، من منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ط2002م.

ميخائيل باختين: الرواية مشروع غير منجز، سامية داودي، جامعة تيزي أوزو، مجلة الخطاب، ع13.